فى دمياط الناهضة

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

يبتغى الداعى الى الإصلاح فيما يهدف اليه سبيلين ، مثلا طيبة يبرزها ويكتنه أسرار جمالها وكمالها لتحتذيها الناس وليجدوا فيها أسوة وقدوة ، وأخرى سيئة أفسدها نقص لا يرى رائد الخير مناصا من تعديد نواحيه ، والكشف عن بواعثه ودواعيه .

ولقد تناولنا حاضرة البلد فى تلك الأخيرة ببحوث عديدة وطلعنا على القارئ بصور كشفت عن بعض نقائص العاصمة وأبانت جانبا من أسباب تأخرها . فكان حقا علينا بعد أن عرضنا للغث أن نلقى ضوءا على المرضى السمين وأن نتحرى فى جنبات هذا الوادى أسلم بيئاته وأقوى جماعاته ، وقد فتشنا عن هذا الكيان الاجتماعى الأسلم فى طول البلاد وعرضها ومضينا إلى مصور القطر ننقل العين بين مدن البلد الفسيح وحاضراته حتى إذا ملكتنا الحيرة رأينا الأصبع يقف ثابتا على ذلك الثغر الصغير القائم فى أقصى الشمال — ثغر دمياط الباسم .

رأينا فى دمياط البلد المثالى فى القطر وليس لنا به صلة ولا تربطنا بأهله رابطة ، رأينا كما ذكرنا لا لجمال ما فيه ، أو لسعته وتنسيق مبانيه فالبلد فى هؤلاء فقيرة إن لم تكن ممحلة ؛ وإنما ساقنا إلى زيارته ولم نكن قد شهدناه من قبل ساقنا اليه ما سمعناه عنه من صيت وشهرة وسمعة — صيت حاضره الناهض ، وشهرة ماضيه المجيد وسمعة بنيه العاملين المجدين .

لقد شهدت دمياط منذ فجر التاريخ شهرة لا تعدلها شهرة ، ولقيت أحداثا لم تمر على بلد من بلاد القطر قبلها — وعندى أن ما اتصف به أهل دمياط من صبر وقوة على احتمال العمل المضنى ، ومجالدة الحياة فى عزم وثبات إنما يرجع فى أكثره إلى تلك القسوة التى عجمت أعواد بنيها من القدم ، قسوة الأحداث التى جعلت منها هدفا دائما لغارات المغيرين وقسوة الطبيعة التى بخلت عليها فلم تؤثرها بغير موارد قليلة فعمد أهلوها إلى رؤوسهم وسواعدهم — يعملونها فى القليل فتدر عليهم بالكد والجد الخير الكثير والرزق الوفير .

تقول عاشت دمياط منذ فجر التاريخ هدفا للغزو والعدوان غزاها العرب فى الفتح الإسلامى بقيادة المقداد بن الأسود قائد عمرو بن العاص فأسلمها "الهاموك" حاكمها من قبل المقوقس بعد قتال وحصار — واعتدى الروم عليها ونزلوا بها ثلاث مرات الأولى عام ٩ هجرية ابان خلافة

الوليد بن عبد الملك والأخرى فى عهد هشام عام ١٢١هـ وقد أعملوا السيوف فى رقاب أهاليها لقاء ما اتخنوا من مقاومة باسلة والثالثة أبان الفتنة بين الأمين والمأمون. على أن شر ما أحاق بدمياط هو ما لقيت من الصليبيين — فلطالما غزا هؤلاء ذلك الثغر بجيوشهم ومراكبهم يقهرونه تارة ويقهرهم أطوارا — هاجم الصليبيون دمياط بمعونة ملك الروم فى مائة وخمسين مركبا مزودا بالعتاد والمؤن وحطوا رحالهم بجوار المدينة فأنفذ اليهم صلاح الدين جيشا بقيادة ابن أخيه تقى الدين وخاله شهاب الدين فاتجه الصليبيون إلى النيل يحاولون عبوره غير أنهم اصطدموا بالحاجز الحديدى وهو سلسلة عظيمة كانت تمتد فى عرض الشاطئ وقد ثبتت فى دمياط من جانب وفى البرج الكبير من جانب آخر وهكذا تمكن رجال صلاح الدين من تضييق الخناق على المعتدين حتى اضطروهم إلى التسليم والصلح بشروط مشرفة للبلد . وفى موقعة أخرى من المواقع التى يسجلها التاريخ لأبناء دمياط بالفخر اشتبا كهم والصليبيين حين هاجموهم فى ربيع عام ٦١٥ هـ فى سبعين ألف فارس وأربعمائة ألف راجل وحاصروا برج حاميتها، حتى إذا كسر الجسر الذى يصل البرج بالمدينة، ضيق الصليبيون الخناق على البرج ومازالوا به حتى استولوا عليه وقتلوا حاميته، ثم اتجهوا بجحافلهم إلى البلد الضعيف بعزلة من فيه، القوى بايمان بذيه — وقف أبناء دمياط وقفة رجل واحد وكادوا بحسن دفاعهم أن يظهروا على عدوهم لولا مدد كبير بعث به ملوك أوروبا من النمسا وبيزا وجنوى والبندقية وفرنسا وانجلترا لنصرة حرب " الصليب المقدس " وقد حاصرت هذه القوات الكبيرة البلد حتى نفدت أقوات الأهلين وتفشت المجاعة والوباء فيهم وامتلأت البيوت والطرقات بجثث لا تجد من يعنى بدفنها لأن من بقى من السكان كانوا فى شغل بالدفاع تارة يحاولون الاتصال بجيش الملك الكامل المنعزل عن المدينة اما بايفاد نيران رمزية لاطلاعه حالهم أو باستلام الرسائل والمؤن فى بطون الجمال التى كان ينحرها جنود الملك ويلقون بها فى النيل ليحملها اليم إلى شاطئ دمياط وطورا يناوشون البلاد المغيرة حتى إذا غلبوا أخيرا على أمرهم دخل الصليبيون البلد فأتوا فيها من الفظائع ما يملأ فى سجل التاريخ صحيفة قاتمة اذ قتلوا كل الرجال واستباحوا حرمة النساء وأحالوا مسجد دمياط المعروف بمسجد أبى المعاطى كنيسة حملت اسم القديسة مريم على أن بقاءهم بالبلد لم يدم غير عام واحد وعشرة شهور إذ تمكن الملك الكامل بعد جهاد طويل من استرداد المدينة مستعينا بمياه الفيضان التى أطلقها فغمرت مواقع الأعداء وعزلتهم مما مكنه من التغلب عليهم .

وفى إبان الثورة العرابية أبت دمياط بزعامة عبد العال أبى حشيش متقدم الجند فيها إلا أن تكون آخر من يسلم من بلاد الساحل إذ ظلت طابيتها تقاوم حتى أرغمت على التسليم .

ولقد لقيت دمياط من عناية الأسرة الملكية الكريمة الشيء الكثير ففي عهد عزيز مصر محمد على رممت القلاع وأنشئت بها مدرسة حربية ومصنع للقطن وزودت مضاربها بالآلات الحديثة .

وفى عام ١٢٣٣ هـ جعلت محافظة وإبان حكم اسماعيل أوصلت بالسكة الحديد عند قرية السنانية وأقيم عليها مجلس بلدى .

كذلك أولاها المغفور له الملك فؤاد الأول عناية كبيرة إذ بنى بها الجسر على النيل واستخدم فى بنائه بعض أجزاء كوبرى امبابه القديم وافتتحت بها المدرسة الصناعية وأنشئت بها مدرسة ثانوية ومركز إسعاف ومستوصف وأقيم بناء المعهد الدينى المتصل بمسجد البحر وغير ذلك من مآثر لا زالت تتوالى على البلد .

حاضر دمياط :

تعتبر دمياط أفضل مدن القطر كافة اذا قيست بسعتها و بتعداد أهليها وحسبك أن تعلم أن هـذا البلد الذى لا تشغل رقعته أكثر من خمسمائة فدان والذى لا يتجاوز تعداد سكانه اثنين وأربعين الفـا يحرز قصب السبق و يبلغ المرتبة الأولى فى الانتاج الصناعى بين مدن القطر كله فدمياط كما اتضح لنـا من الرجوع إلى الاحصاءات والتقارير الرسمية :

(أولا) أولى مدن القطر فى صناعة الألبان ففيها ثلاثون معملا تنتج كل أنواع الجبن الأبيض وغير الأبيض وقد أرتنا الحرب الحاضرة كيف تمكن الدمياطى من أن يصنع على قلة عدده وضعف استعداده كافة ما كان يرد لنا من أصناف الجبن "الرومى والشستر والفامنك وغيرها " وهى لا تغذى القطر وحده ، بل تتعدى ذلك الى تصدير جانب الى بلدان الشرق العربى المجاورة .

(ثانيا) هى الأولى كذلك والمصدر الرئيسى لمصنوعات الجلود وخاصة الأحذية التى تملأ سوق القطر وتفيض على الأقطار المجاورة .

(ثالثا) وهى الأولى أيضا فى صناعة الأثاث الذى يمتـاز بجماله ودقة صنعه مع قلة تكاليفه .

(رابعا) وهى تحتفظ بأوليتها كذلك فى صناعة الحرير وفيها مصنع شركة مصر للحرير .

(خامسا) وتكاد دمياط تبلغ المكان الأول وتفوق رشـيد فى صناعة ضرب الأرز إذ لديها اليوم خمسة وعشرون مضربا من المضارب الحديثة .

ويحتضن دمياط مصيف رأس البر الذى بلغ بفضل عناية بلدية دمياط أسمى مكان بين مصايف القطر كافة وهو يتغذى من دمياط ويتولى العمل به وإدارة فنادقه مصريون أكفاء من أبناء دمياط ليس فيهم سوى أجنبي واحد .

ويمتاز الدمياطى بظاهرتين هامتين : الأولى صلاحه ومحافظته على دينه وإنك لتلمس هذه الظاهرة واضحة حين ينادى للصلاة من يوم الجمعة إذ يذر أصحابها البيع ويسعون إلى ذكر الله .

والدمياطى على تمسكه بدينه أكثر المواطنين تمشيا مع المدنية الصحيحة فهندامه، وبيته ومعاملاته مطبوعة كلها بطابع أوربى وبهذا عرف هؤلاء الناس كيف يجمعون بين تربية روح الاسلام الصحيحة وروح الغرب الناهضة — والعامل الدمياطى أكثر عمال القطر جلدا وأشدهم احتمالا وأبرعهم عملا وذكاء وهو مع بساطة أجره فى غنى دائم عن الناس وليسره ثلاثة أسباب :

انصرافه إلى العمل بكل قوته واشتغاله ساعات أكثر من غيره وتبين هذه الظاهرة واضحة إذا قارنا عمال الأحذية فى دمياط بغيرهم فبينما يأخذ العامل الدمياطى أجرا لصناعة الزوج نصف ما يتقاضاه العامل فى مصر فان كسب الدمياطى أكثر لأنه ينتج فى اليوم أكثر من ضعف نظيره فى مصر .

وطبعى أن انصراف الرجل إلى العمل والسعى يصرفه عن اللهو والفساد لهذا خلت دمياط من أسبابهما .

وحسن تدبير زوجه لشؤون بيته وهذا ماسنبينه عند الكلام عن سيدات دمياط بعد .

وككل جماعة ناهضة يمتاز أهل دمياط بالميل إلى التآزر والتعاون فأرباب المهن الواحدة يلتفون حول نقابة أو رابطة ويرى نوابهم ورؤساء الأسرات الكبيرة بينهم فى معونة مواطنيهم والسعى لقضاء حوائجهم واجبا وفرضا — ولقد دخلت بعض المقاهى فلاحظت صورة للمرحوم عبد الحليم بك العلايلى معلقة على الجدار وإذ سألت صاحبى سر الاهتمام بهذه الصورة قال هذا كل ما يكنه كل دمياطى لهذا المواطن الكريم ومضى محدثى يذكر لى بعض آثار العلايلى بك لأهل بلده مما نذكره مثلا للتضامن والتكافل بين الكبار والصغار ذلك التكافل الذى إذا تحقق فى كل بلد ماشكا أحد ضيقا ولا حلت بجماعة مسغبة ... قال صاحبى :

منذ بضع سنوات اندلعت النار فى فندق كورتيل الكبير برأس البر وكان ملكا لأحد الدمياطيين هو المرحوم مرسى سرحان — طير النبأ إلى عبد الحليم بك ليلا فلم ينم ونهض لفوره يمر على الأعيان والتجار يوقظهم ويكلفهم بفتح مخازنهم يجمع أخشابا وقماشا ومالا

و يصحب عمله بتبرع سخى من جيبه وهكذا لم يمض على الحادث يومان أو ثلاثة حتى رأى صاحب الفندق فندقه يعاد إليه جديدا كامل المعدّات — ... وعاد محدثى يعدد إلى بعض مآثر الرجل على بلده فذكر ما كان من سعيه وتوفيقه فى بعض السنين إلى استصدار مرسوم بإعفاء مؤقت لأبناء دمياط من الخدمة العسكرية بسبب حاجة الصناعة حينذاك إلى الأيادى العاملة — ذلك إلى جهوده فى تحسين البلد و إقامة المؤسسات الكثيرة بها .

وتقوم دمياط على أسرات بينها أسرات عريقة كأسرة العلايلى واللوزى والجمال والحامصى وكسيبة ومشرفة والأشمر وغيرها — وقد أنجبت دمياط الكثيرين من رجالات البلد المبرزين من علماء وأدباء ورجال أعمال وهى فى هذا عريقة مجيدة ولا غرو فصفحة التاريخ مليئة بالجهابذ من أبناء هذا البلد نذكر منهم جلال بن شاش شيخ المالكية وصاحب الجواهر الثمينة فى المذهب وقد راح هذا العالم الكبير ضحية جهاده بأن حصار الصليبين لبلده عام ٦١٦ هـ ومنهم الشيخ عبد السلام الدمياطى المعروف بابن الخراط — والشيخ خليل البهوتى ومحمد بن يوسف واللقيمى صاحب "المدامية الاجوانية" و"المقامية الرضوانية".

ومساجد دمياط كثيرة بسبب تدين القوم من أهمها المتبولى والشيخ أبى العباس ومعين الدين وبها أيضا الشيخين الشهيرين شطا وأبى المعاطى اللذان يحتفل بمولدهما فى شعبان من كل عام .

والشيخ شطا هو ابن الهاموك حاكم دمياط من قبل المقوقس وقد أسلم وانخرط فى سلك المجاهدين وكانت لمعونته أثر فى تسهيل دخول العرب دمياط — أما الشيخ أبو المعاطى فهو عالم فاضل وهو معروف بين المشتغلين بعلوم الدين كمتصوف معتدل كما أشار إلى ذلك الدكتور زكى مبارك فى كتابه "التصوف الاسلامى" — قدم أبو المعاطى — أو — "فاتح بن عثمان الأشمر التكرورى" من مراكش إلى دمياط فى أوائل القرن السابع البحرى وسق الماء فى الأسواق وأقام بالمسجد الذى تنازعه المسلمون والصليبيون مرارا وتولى أمره وكان يختلف عن نظرائه من المشايخ فلم يعط عهدا ولم يدع مشيخة — كان يتجنب الاشارة إلى نفسه فاذا ذكر "أنا" سارع إلى الاستعاذة بالله — وكان زاهدا لما فى الناس ومن أقواله المأثورة "الفقير كالفتاة البكر إذا سأل زالت بكارته" ولهذا مات الرجل رغم ما أحيط به من جلال . مات معدما وترك ولدين لم يخلف لهما غير دين يربو على الألفى دينار — ويعتبر أبو المعاطى أهم مساجد دمياط وهو ثانى مساجد القطر قدما بعد جامع عمرو — ولبعض السذج من الدمياطيين اعتقادات خرافية فى كرامات الرجل ففى مسجده عمودان متقاربان يعتقد البسطاء أن من يتمكن من المرور بينهما يغفر له .

الدمياطية كربة بيت :

إذا كانت المعرفة التامة بشؤون البيت، والعناية بالأطفال، والتعاون مع الزوج فى طاعة وهدوء وابتسام، والتزام النظافة البالغة فى المسكن والملبس، ومراعاة التدبير فى النفقات، هى سجايا الزوجة الصالحة، فالدمياطية فى هذا لاتجارى، بل لانكون مغالين إذ قلنا إنها الزوجة المثالية، علمنى هذا ماسمعته ثم ماسته بنفسى فى البيوت التى دخلتها فى جولتى هذه بدمياط — أما معرفة شؤون البيت وتدبير أمره، فصيت سيدات دمياط فى هذا ذائع بعيد، فهى تعتمد على نفسها فى كل شئ، تطهى، وتعد الخبز، وتخيط ثيابها وثياب زوجها وأولادها، ومنهن من يطلين الأبواب والجدران بأيديهن، وتتدبر الدمياطية القليل تدبيرا بالغا، وتعمل للأيام دواما حسابها، وليس أدل على ذلك من أن أعلى نسبة للمدخرين فى صندوق التوفير هى فى دمياط، وهى تعاون زوجها بكد أناملها، وتستغل فراغ أولادها فى معاونتها، ولقد شاهدنا بمصيف رأس البر كثيرا من تلاميذ المدارس يبيعون المصيفين مفارش ومناديل وملابس داخلية من صنع أمهاتهم — أما النظافة فهى ميزة طبعت بها بيوت دمياط، فالدمياطية لا تكتفى بالنظافة المعتادة، بل تعمد إلى التفنن فى تنسيق الأثاث وترتيبه، وأكبر ظنى أن ذلك يرجع إلى قلة خروجها وعدم اختلاطها بغيرها، وانصرافها عن التردد على المتاجر، أو غشيان دور الخيالة والملاهى التى لا وجود لها بدمياط إلا خيالة واحدة صغيرة — ولقد استضافنى ليلة صديق دمياطى فى داره هناك فأدهشنى حين تجاوزت باب الدار تلك النظافة البالغة وذلك النظام البديع الذى عليه البيت، فالسلم والحجرات والأثاث والفرش كلها تبرق حتى لتكاد تحسبها جديدة لفرط نظافتها — شاهدت فى غرفة الاستقبال أثاثا فى طراز يابانى ولوحات فنية يابانية ولكم أدهشنى إذ علمت أن هذا الأثاث جىء به من عند النجار خشبا أبيض وأن الطلاء والنقش الفنى قد تم كله بيد زوجه التى مهرت كل قطعة بامضائها — والدمياطيات جميلات بوجه عام بيض البشرات فى سمرة خفيفة وجمالهن وصحة أجسامهن أسباب بعضها يرجع إلى مناخ البلد والبعض إلى حسن التغذية التى قوامها السمك والأرز أو إلى انحدار الكثير من الأسرات من أهل سورى .

طباع الدمياطيين :

ويمتاز أهل دمياط بالميل إلى المرح لهم كما تصفهم الموسوعة الفرنسية الكبرى La population est generalement aise ويفترق الدمياطية عن ابتسامة دائمة على أنهم كشعب مشتغل بالتجارة أميل أهل القطر إلى الحرص حرصا يخرج أحيانا ببعضهم عن حد المألوف حتى ان بعض الأسرات تضع مسألة الصداق ومقداره أساسا لقبول الزوج

وربما رفض الزوج على مزاياه لمجرد تقدمه بالصداق القليل، وتغلب هذه الروح التجارية على الكثيرين إلى حد قد يدهش له الغرباء عن دمياط، على أن الصلات الزوجية بدمياط أقوى أشد منها فى أى بلد آخر، وحسبنا للتدليل على استقرار الحياة الزوجية هناك :

أن دمياط أقل من القطر طلاقا كما أنها أقلها نسبة فى عدد الجرائم .

وأنها البلد الوحيد الذى لا يحوى حانة ولا يأوى مرابيا .

وليس للأجنبى مكان ما بدمياط .

ودمياط فوق ذلك هى من المدن القليلة التى ليس فيها من القدم دعارة رسمية ولا غير رسمية.

ويكاد كل دمياطى أن يكون مالكا لبيت — وملكية البيت فى دمياط هى أول ما يتجه اليه فكر الشاب قبل أن يبحث عن الزوجة ولهذا نرى سن الزواج فى دمياط متأخرا والاقبال عليه قليل — وخاصة أنهم لا يميلون إلى تزويج بناتهم من غير أبناء دمياط .

ما تفتقر إليه دمياط :

كانت دمياط إلى سبعين سنة خلت من أهم ثغور مصر البحرية وحسبنا أن نرجع فى هذا إلى المقارنة التى أوردها على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية و إلى ما كتبه الأستاذ عبده شراره فى كتابه " تاريخ ما أهمله التاريخ " وهو كتاب قيم رجعنا اليه فى بحثنا واعتمدنا على بعض ما ذكر فيه — وفيما يلى بيانان الأول عدد الكتبة الذين يشرفون على الموانى والآخر عن عدد السفن وحمولتها فى سنة ١٨٧١

الميناء	عدد الكتبه	عدد العمال	مرتباتهم
رشيد	٣	٢٠	١٠٠٠ ريال
بولاق	٦	٤٠	٢٤٠٠ »
الاسكندرية	١٢	٦٠	٤٠٠٠ »
دمياط	٨	٥٠	٤٠٠٠ »

وكان الوارد من البضائع فى تلك السنة كما يلى :

السويس	٥٥٤ سفينة	الحمولة بالطن	٣٢١
أبو قير	٥٣٨ »	»	٤١٢
رشيد	٩٠٩ »	»	٩٠٥
دمياط	٧٠٧ »	»	٤٠٩١٨

مما تقدم نرى أن دمياط كانت فى مقدمة موانى القطر أهمية ولكن هذه الأهمية أخذت تضمحل لأسباب منها :

إنشاء ميناء بورسعيد التى أعدت بنظام حديث جعلها من أهم موانى البحر الأبيض . وتراكم طمى النيل على مدخل الميناء مما سد مدخل البوغاز وقد ضاعف هذا ما كان السلطان الظاهر بيبرس قد ألقاه من أحجار قصد بالقائها منع سفن العدو من الاقتراب من البلد هذا الى غرق الأسطول التركى أبان الحملة الفرنسية مما عجزت الكراكات عن رفعه . و إنشاء الخط الحديدى الذى أفقد دمياط مكانها كحلقة اتصال بالشام .

ولقد باتت مشكلة إعادة مجد دمياط كميناء بحرى مشكلة تتضارب الآراء فى حلها فبينما ينادى المتصرون لاعداد الميناء بوجوب المبادرة بفتح البوغاز وتطهيره و إعداد أرصفة للشحن إذ أن الشاطىء بحالته الحاضرة لا يسمح برسو السفن التى يتجاوز عمق غاطسها ستة أقدام يجهر البعض بأن انفاق مليون من الجنيهات فى إنشاء الحواجز ضياع للمال لما يتطلبه التطهير من نفقة دائمة وعندنا أن خير ما يعمل لتسهيل التصدير والإستيراد هو إتمام الطريق الذى يصل دمياط ببورسعيد و بهذا تقوم الأخيرة مقام الأولى فى استلام و إصدار البضائع وتمكن الأولى من مضاعفة إنتاجها لما تفيد به من سهولة الإصدار والإستيراد .

ثم هناك مشكلة المجارى العامة فالبلد كما علمنا لا مجارى فيها ونحن نرجو أن يعنى ولاة الأمور بهذه المشكلة كذلك ينقص دمياط تنظيم حديث، ذلك بأن أكثر بيوتها القديمة تقوم فى حوارى ضيقة لا تتخللها الشمس ولا الهواء وفى هذا ضرر على طبقة تقضى يومها عاملة بين جدران رطبة لتعود الى بيت غير صحى .

ولعل أكبر ما يستلفت نظر زائر دمياط كثرة البيوت المهدمة والخربات حتى فى المواقع الممتازة المطلة على النيل بسبب إهمال الأوقاف المالكة لها على أن هذه المسألة التى لاحظها قبلنا معالى الأستاذ عبد الحميد بك عبد الحق قد وضعت موضع الاهتمام بعد توليه وزارة الأوقاف .

هذه هى دمياط وتلك صور لما رأيناه فيها بعد دراسة نقدمها للقراء لما فى خلق أهلها من أسوة وعظات ، ونكشف كذلك أمرها لمن بيدهم الحل والعقد ليعيروا هذا البلد الناهض ما هو جدير به من رعاية وعناية بما يزيد فى تقدمه و يعيد اليه مجده الغابر التليد .

محمد عبد الكريم